لَعَمرُ أَبي لَيْلَى لَئِنْ هِيَ أَصبَحَتْ
بِوادي القُرَى ما ضَرَّ غَيْرِي اغْتِرابُها[١]

١٨
يا نفس صبراً

دخلَ مكَّةَ المكرَّمَة محرِماً ليطوف حول الكعبةِ سائلاً ربَّه الوصالَ من ليلى. ولما سمعه الطائفون أَنكروا عليه ذلك وقالوا له: هلَّا سأَلت ربَّك المغفرةَ والتوبةَ فأَنشد يقول:

[الطويل]

ذَكَرْتُكِ حَيْثُ اسْتَأْمَنَ الوَحْشُ والتَقَتْ
رِفَاقٌ مِنَ الآفاقِ شَتَّى شُعُوبُها[٢]
وَعِنْدَ الحَطِيمِ قَدْ ذَكَرْتُكِ ذِكْرَةً
أَرَى أَنَّ نَفْسِي سَوْفَ يَأْتِيكِ حُوبُها[٣]
دَعا المُحرِمونَ اللَّهَ يَسْتَغْفِرُونَهُ
بِمَكَّةَ شُعْثاً كَيْ تُمحَّى ذُنُوبُها[٤]

---

(١) يقسم الشاعر بأبي ليلى بأن رحيلها لن يضرّ أحداً سواه. وادي القرى: اسم مكان.

(٢) بدل أن يتوب الشاعر إلى اللَّه تعالى ويستغفره ذكر ليلى وتضرّع إلى خالقه تعالى حيث يجد كلّ كائن مأمنه، إذ بمن يطوفون يستنكرون عليه دعاءه وتضرّعه، لأنه لم يخلص للَّه تعالى تضرّعه واستغفاره.

(٣) و (٤) الحطيم: أحد المواضع المباركة في مكة المكرمة. الحوب: الحزن. أثناء سعي الشاعر تجلّت له ذكرى حبيبته في لحظة تجلّيات الخشوع وتضرّع إلى الخالق تذكر حرمانه وآلامه، ولا ريب أن خبر ما يعانيه سيصل إلى مسامع حبيبته، بينما المحرمون يتوبون إلى مولاهم ويستغفرونه وهم شُعْث غُبر على أمل أن يستغفر لهم خالقهم وتمحى ذنوبهم.

وَنـادَيْـتُ يـا رَحْـمٰـنُ، أَوَّلُ سُـؤْلَـتِـي
لِـنَـفْـسِـيَ لَـيْـلَـى ثُـمَّ أَنـتَ حَـسِـيـبُـهـا[١]

وَإِنْ أُعْـطَ لَـيْـلَـى فـي حَـيـاتِـيَ لـم يَـتُـبْ
إِلـى الـلّٰـه عَـبْـدٌ تَـوْبَـةً لا أَتُـوبُـهـا[٢]

يَـقِـرُّ بِـعَـيْـنِـي قُـرْبُـهـا وَيَـزِيـدُنِـي
بِـهـا عَـجَـبـاً مَـنْ كـانَ عِـنْـدِي يَـعـيـبُـهـا[٣]

وَكَـمْ قَـائِـلٍ قَـدْ قَـالَ: تُـبْ، فَـعَـصَـيْـتُـهُ
وَتِـلْـكَ، لَـعَـمْـرِي خَـلَّـةٌ لا أُصِـيـبُـهـا[٤]

وَمَـا هَـجَـرَتْـكِ الـنَّـفْـسُ يـا لَـيْـلَ أَنَّـهـا
قَـلَـتْـكِ وَلَـكِـنْ قَـلَّ مِـنْـكِ نَـصِـيـبُـهـا[٥]

فَـيـا نَـفْـسُ صَـبْـراً لَـسْـتِ والـلّٰـه فَـاْعْـلَـمِـي
بِـأَوَّلِ نَـفْـسٍ غـابَ عَـنْـهَـا حَـبِـيـبُـهـا[٦]

---

(١) و (٢) ورد البيت في: همع الهوامع، شرح جمع الجوامع ٢: ١٥٧، الدرر اللوامع ٢: ٢١٩. سؤلتي: مطلبي. حسيبها: محاسبها. أثناء هذا الجوّ الزاخر بالمشاعر والتضرّع، يطلب الشاعر من اللّٰه الرحمٰن أن يرحمه بأن يقدّر ليلى من نصيبه بدل أن يتوب إليه ويُخلِص نيّته، وهو سيحاسبه على نيّته. وهو يربط التوبة الخالصة للّٰه تعالى بأن يعطى ليلى وسوف يتوب توبة على كلّ ذنب من دون العالمين.

(٣) وقرب حبيبته يحمله على الطمأنينة وراحة البال ويثير فيَّ الدهشة ممّن يعيب صدودها وبعدها عنّي.

(٤) الخلّة: الصفة والعادة. كثيرون هم الناصحون الذين طلبوا مني التخلّي عن حبّي لمحبوبتي فعصيتهم؛ فعادتي الإخلاص لمن أحبّ ولست من عادتي التنكّر لحبّي.

(٥) قلتك: بعدت عنك. والشاعر يلوم حبيبته بأنها هي السبب في بعد الشاعر عنها، فنفسه عاشقة ولكن صدود الحبيبة حمله على البعد.

(٦) يوجّه الشاعر لنفسه همسه ويوطن النفس على الصبر؛ فليس هو أول من تخلّى عنه الحبيب، فعليها أن تصبر على ما ألمّ بها من إجحاف وظلم من قبل من أحبّ.